٢٦

القلب السياسى

حقا إن الله لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه . فرجال السياسة اليوم ليس لهم إلا قلب واحد هو القلب السياسى . فما يتردد فى صدورهم إلا حديث الانتخاب . وتوزيع الكراسىّ على الأحزاب . ومرسوم الميزانية ، والرحلة الملكية . وهذان الأستاذان عبد القادر حمزة وعباس العقاد وغيرهما قد بحّت أصواتهم فى هذه المسائل بين استنجاز لمطول ، وتعريف بمجهول . حتى لم يبق عامى ولا شبيه به إلا وقد وقف على كنه المسألة المصرية وما يُبيَّتُ لها ، أو يُشدّ به أزرها

وما نعيب على وطنى أن يعنيه أمر وطنه فيعرف أولياءه وأعداءه ونافعه وضاره ، ولكننا نعيب أن يقيِّد شىء واحد أسماعَنا وأبصارنا ، ويأخذ علينا مذاهبنا وشعابنا . فنتلافى خطراً ونستهدف لأخطار ، ونداوى جُرحا وتفرّط فى جراح

هذا مرسوم ملكى قد صدر يبطل بدعة ويميت ضلالة ويقضى على مفاسدَ كثيرةٍ ويخلّصنا من شرور تورّطت فيها الأجيال الماضية — هو مرسوم بما ينبغى اتباعه من آداب الزيارة للقبور وتشييع الجنائز والاقلاع عن عادات الجاهلية الأولى . فهو إلى جانب كونه مرسوما ملكيا يجب أن نعتبره صفحة نقية من آداب ديننا القويم وصورة حسنة لما يجب أن تكون

عليه نفوسنا ويظهر به اجتماعنا من كمال ونظام

يقضى هذا المرسوم بمنع ذبح الذبائح داخل الحيشان أو بجانب القبور ، وعدم السماح بالمبيت فى القرافة أو المكث بها إلى ما بعد الغروب بساعتين، وبمطاردة المتكففين هناك ، وبإبطال الندب واللطم والعويل وإقامة الزار والملاهى بجوار المقابر ، كما يمنع أن يتبع الجنائز إلى القرافة نساء أو كفارات أو حملة القماقم والمباخر أو نحوهم .

يصدر هذا المرسوم ويُبدأ تنفيذه من ٢٥ مارس سنة ١٩٢٦ ويعرف كتاب الصحف ومفكرو الأمة أثره فى صلاح اجتماعنا كما يعرفون أنه علاج العلة التى ظللنا نشكوها مُرّ الشكوى فى السنين الفائتة فما ظفرنا لها بعلاج . واليوم حين يقدّم لنا العلاج أو تُزَفُّ إلينا البشرى بالسلامة من الداء لا نعلن الفرح بهذه النجاة ، ولا نبنى الآمال على خروجنا من أسر هذه العادات ، ولا نُعير هذا الموضوع نَفْثَة من أقلامنا ! ! أما كان يحسن برجال الصحف أن يُعينوا رجال الإدارة على تنفيذ هذا المرسوم بشرح آثاره وبيان منافعه والتخويف من مخالفته حتى يُذْعن له الناس من غير عناء ولا كبير مقاومة

٢٧

كتّابنا

شاءت المقادير أن تمدّ فى أنفاس كلماتنا إلى مابعد رمضان ، وقد صحّ عزمنا أن نطالع حضرات القراء فى الفَيْنة بعد الفينة بما يقع تحت نظرنا الكليل من مادة للقول . هى ما بين حقيقة نَسْرُدُها أو مذمّة نَعيبها . أو محمدة نُذيعها أو صفحة من التاريخ نَنْشرها . ملتزمين ما رآه القراء منا فى (كلمات صائم) من إيجاز صريح وإشارة مغنية ، شاكرين « للبلاغ » خادم القضية المصرية اتساع صدره لكلماتنا

لعلى اليوم بهذه المقدمة الطويلة قد وقعت فيما سآخذ الكتاب به ، لأنى نويت فى هذه الكلمة أن أتعرض لسخطهم ، بنقد إنشائهم . . .

ليكن لأنصار الجديد حقهم فى أن يجددوا ولكن لا ينبغى لهم أن يفهموا أن من التجديد ذلك الخروج الذى يخرجونه عن حدود العربية وقوانينها . فليراعوا ذلك أولا ثم ليلعبوا بالأسلوب ماشاءوا ، وَلْيُهلهِلوه[1] ما أرادوا ، ولهم فى فضاء اللغة الواسع ومناحيها الكثيرة ما يسع جَوْلاتهم ويحتمل تجنّياتهم

لايحسن بنا أن نسكت على من يجعل أول خطبته فى كتابه قوله بعد جملة أصفار ونقط (. . . وحتى هذا الكتاب يحتاج منى إلى مقدمة) فأن حتى هذه التى يقول فيها الأخفش . أموت وفى نفسى شىء من حتى . لأنه وجدها مشعبة الاستعمال ، متعددة المعانى والأغراض ، لم نجد من العرب

---

(١) هلهلة الكلام ترقيقه

من استعملها فى البدء البحت ولا من استعملها بعد هذه الواو . فكيف ساغ لهذا الكاتب أن يجمع بين الجنوحين وأن يركب الشططين

ليس من أساليب العرب فى حقير ولا جليل ما يبدأ به القُصّاص رواياتهم من ضمير لا مرجع له وليس هو بضمير الشأن مثله فى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) . فترى الرواية قد بدئت بقول كاتبها : مضى عليه فى هذه الجزيرة عشر سنوات لا يعرف له مأوى غير الكهوف . .

وما كنت أودّ أن أذكر أسماء ولكنى مضطر أن أبوح باسم الأستاذ توفيق دياب ، يدفعنى إلى ذلك ما أحب من تسجيل فضله وأدبه الجم . ثم لا يمنعنى هذا من لومه وهو ذلك العربىّ الجَزْل بل البدوىّ القُحّ أن يتهافت تهافت هؤلاء الأطفال الذين يمضغون الكلام ويقطّعونه تقطيعاً فيقول فى ذيل مقال له فى السياسة الأسبوعية فى تقسيم الناس إلى جادّ فى الحياة وهازل (ترى أى الرجلين تكـ . . يكـ . . أكون) أراد أن يأتى بجميع أنواع الضمائر للمخاطب والغائب والمتكلم فمنعه الحياء أن يتم الكلمتين تكون ويكون. ولعله رأى مثل هذا التعبير فى اللغات الأخرى ولكننا فى العربية صُرَحاء لا يمنعنا من قَوْلة الحق مانع . فإذا كان الأستاذ دياب قد حسنت نيته وأراد أن يدخل إلى العربية ذوقاً جديداً فى التعبير فقد وقع فى « التلك » « واليك » وهى لغة النَرْد [1] فى عرف اللاعبين . وما نرضى له أن يكون ككتاب الروايات الساقطة الذين يريدون أن يمثلوا الحياء والخجل فيقولون وطلب منها قـ . . بـ . . لة . وليس ذلك فى رأيى إلا نوعا من الاستعجام

(١) « الطاولة »

والنبطية[1] وإلا ففى اللغة الألفاظ الكثيرة التى تدل على الخجل والاستحياء

لعل لكل هؤلاء الكتاب عذراً لأنهم قد غمرت عقولهم الأساليب الأعجمية فوقعوا فيها طوعاً أو كرهاً . فما بال أستاذنا الشيخ عبدالباقى سرور فى أمالى رمضان يكرر لفظ (هذا) فى خمسة أسطر أكثر من عشر مرات ولا ندرى كيف أخذته جلالة هذا اللفظ حتى كرره تكراراً معيباً . مع أن نقاد المتنبى حين عابوا عليه الإكثار من كلمة (هذا) لم يجدوا له فى ديوانه كله ما وجدناه مجموعاً فى أسطر الأستاذ . قال حفظه الله : هذا للأجنبى ، هذا حسن . هذا عن الغرب ، هذا جميل . هذا من أوربا ، هذا رقى . هذا من انجلترا ، هذا فيه سعادة . هذا من فرنسا ، هذا فيه عزة . هذا من إيطاليا ، هذا فيه فخر . هذا من الشرق ، هذا ممقوت . هذا من تعاليم الإسلام ، هذا قديم . هذا من الدين ، هذا خرافة .

وبعد فمعذرة أيها الكتاب ، وصفحاً أيها البصير « قُدَامة لتطفلى على مائدتك الشهية »

---

(١) لغة قوم كانوا ينزلون بين العراقين « العربى والفارسى » فكانت لهم لغة بين العربية والفارسية ويضرب بأهلها المثل فى العجمة

٢٨

شاعرنا حافظ

أقيم الاحتفال بالعيد الخمسي[1] للمقتطف فكان من المصريين أكبر مظهر لعرفان الجميل . فقد تولّى رعايته أكبرُ مقام في مصر (حضرة صاحب الجلالة الملك) وشهده وشارك فيه خلاصة الأمة من أمراء وزعماء وعلماء فكان ذلك شكراً بالغاً على ما أسدى المقتطف إلى المصريين من فضل .

موضوع كلمتنا هذه هو قصيدة حافظ إبرهيم بك وسنتناولها بالنقد ونبيح لأنفسنا أن نكون فيه أحراراً . وما يعنينا أن يغضب حافظ أو ينقم منا هذا الخروج على الصداقة فإن حق الأدب فوق كل حق . أليس هو حق اللغة التي وضع منها حافظ في قصيدته وحق الشعر وجمال الفن اللذين أساء إليهما ؟ فكيف يعدل حق واحد حقوقا كثيرة . على أننا نطمع في صفح حافظ يوما ما ولا نعدّ أنفسنا أهلا لرضا اللغة عنا حين ننام عن وِتْرها[2] ولا ننتصف لها .

سأترك لشاعرنا معناه فلا أتعرض له باستهجان ولا بدعوى إسفاف وسُوقيّة ونزانا بذلك قد أكرمنا حافظا ونزلنا له عن كثير مما لا يتساهل فيه غيرنا . وموقفنا معه اليوم في شأن ألفاظه وأساليبه وأغاليطه واستعاراته وتشابيهه وقوافيه . .

---

(١) نسبة إلى خمسين ويخطىء كافة الكتاب يجعل النسبة أليها على لفظ « خمسيني »

(٢) ثأرها

لو عرفت أيها القارىء طريقة حافظ فى كل ما يكتب لعجبت كيف يعثرُ له ناقد على غلط لأن حافظا إذا قال بيت شعر أو سطر نثر تلمَّس الأدباء وغير الأدباء بكل سبيل فأقبل عليهم يسمعهم ما قال مقدِّما أو معقباً بشرح الصعوبة التى عالجها والعقبات التى تخطّاها فى إخراج ما أخرج وما يزال يزيِّن لك جمال هذه اللفظة واختراع ذلك المعنى وأنت غير مستطيع لشدة إقباله عليك وتوسّله إليك إلا أن تشير إشارات الإعجاب . وتتظاهر بمقدرته على الإطراب . ولعل هـذا هو السر فى أن شعر حافظ أو نثره يخرج بعد طول هـذا العرض محتاجا إلى كثير من الإصلاح . وأشهد لقد سمعت منه هذه القصيدة فلم أملك من الحرية ما أُبدى به رأيى فيها .

استوقفنى ثالث بيت فى القصيدة وهو قوله فى الحديث عن صاحبى المقتطف

خمسون عاما فى الجهاد كلاهما شاكى اليراعة طاهرُ الجلباب

غلطة نحوية ! ما يحسن بذوق حافظ أن يستسيغها مهما ادّعى الجهل بقواعد اللغة فإن هذه القواعد ليست منفصلة عن الأسلوب وحافظ لا يقبل أن نقول عنه إنه لم يتذوق بعدُ الأسلوب العربى

كلمة كلاهما تحتاج إلى واو لتكون وكلاهما لأنها وما بعدها جملة واقعة حالا وهى محتاجة إلى رابط . وهذا كلام نوجزه وإن كان له خبىء مطول فى كتب النحو

كذلك فى البيت كلمة (طاهر الجلباب) وهى كلمة يراد بها براءة الذمة ونقاوة العرض والأصل فيها أن يقال طاهر الذيل فاعمل الذى بدّل بالذيل

الثوبَ كله هو حكم القافية وما أكثر ما تحكّمت فى هذه القصيدة

أما كلمة اليراعة فقد أعجبتْ حافظا حتى كررها ثلاث مرات فى ثلاثة أبيات متوالية فقال بعد هذا البيت :

(وأرى اليراعة حِلْية الكتّاب)

وبعده

(إنّى نظرت إلى اليراعة فى يدى)

وقال بعد ذلك فى وصفها

ونظرتها تنقضّ من كفيهما فوق الطروس تخِلْتُها كشهاب

وقبل أن أذكر لك رأى علماء البلاغة فى هذا البيت نتحاكم إلى الذوق فى قوله (خلتها كشهاب) أليس أحسن منه وأمثل (خلتها شهاباً) . أما رأى علماء البلاغة فهو أن خال من أدوات التشبيه مثل الكاف فهى مغنية عنها وليس من غرض يدعو إلى تكرار الأداة فلم يبق إلا أن حافظا ألجأته القافية إلى هذه الكاف

قال بعد ذلك

يُزهَى مُدَجَّجُنا برمح واحد وأراهما لا يُزهَيان بغاب

الغاب جمع غابة وهى الآجمة فهل يريد أن لديهم أقلاماً كثيرة فهى تحاكى فى كثرتها كثرة الأشجار فى الغابات . إن كان هذا قصده فما أرى كثرة الأقلام مغنيةً عن الكاتب أو العالم شيئاً . وإن أكثر الناس أقلاما هم أولئك الأطفال حين يبدءون المِران على الخط . ولو أن معنى حافظ كان معنى شريفا ما عدل عنه أبو تمام فأفرد القلم فى قوله

لك القلمُ الأعلى الذى بشَباته يُصاب من الأمر الكُلَى والمفاصل

ثم قال حافظ فى شيخَىْ المقتطف أيضاً

جازا مَدَى السبعين لم يتجاوزا عن وصل حمد واجتناب سباب

شطر هذا البيت أسلوب ركيك غير صريح الدلالة على معناه فهل المعنى أنهما استمرا يواصلان الحمد أو المدح ويجتنبان السب . أو أنهما استمرا هذه المدة يستحقان منا أن نواصل حمدهما بفعلهما الجميل ولا نجدلهما مايوجب الذم . أما المعنى الأول فليس مدحاً لهما وأما الثانى فلا تؤديه العبارة

ثم قال من وصف المقتطف :

اللفظ فيه مقوم بصحيفة والسطر فيه مقوّم بكتاب

فهل يعجب حافظاً أن يكرر حرف جر مرتين فى بيت واحد ألم يكن مستطيعاً أن يجعل واحداً فيه والآخر منه ، كذلك الشأن فى تكرار كلمة (مقوّم) ولست أرى غرضاً ظاهراً من أغراض التكرار فى علم المعانى دعا حافظاً إلى ما ارتكب

ثم يقول : —

كم من يراعة كاتب جالت به ولُعابها فى الطِّرْس حلو رُضاب

لاشك أن الرضاب فى ذوق المحب حلو وهو شهد أو أرقّ . ولكن ألم يكن يحسن اتباع الذوق الشائع فى وصفه بكلمة (عذب)

ثم قال : —

وقفتْ سُقاة الفضل فى جنباته تروى النفوس بمُتْرَع الأكواب

فوقع حافظ فى غلطة أبى تمام واحتجنا أن نطالبه بكوب من الفضل

كما طولب أبو تمام بملء زجاجة من ماء الملام [1]

ثم قال فى وصف محاسن المقتطف

قد نُسِّقتْ وتآلفت فكأنها فى الحسن مثل تآلف الأحزاب
وترى تهافتنا عليه وحرصنا فتخال فيه مقاعدَ النواب

لقد أشبه حافظ فى قافيتيه هاتين (تآلف الأحزاب) و (مقاعد النواب) نجيبا الريحانى وعليا الكسار فى انتقالهما من الدُّعابات والخلاعات فجأة إلى ذكر الوطن والوطنية حتى يستثيرا إعجاب المتفرجين فيشتد تصفيقهم ويتعالى صياحهم . فهكذا أراد حافظ أن يستدرّ الأيدى شيئاً من التصفيق ويستجدى الحناجر بعضاً من الاستعادة فذكر (تآلف الأحزاب) و (مقاعد النواب)

ثم قال : —

لو كنتُ فى عهد الفتوة لم أزل لوهبت للشيخين بُرْد شبابى

هل يستطيع حافظ أن يقول إنه يريد غير هذا الترتيب (لو كنت لم أزل فى عهد الفتوة) . وإذ ذاك تكون هذه الغلطة هى الغلطة النحوية الثانية فى القصيدة لأن خبر الفعل الناقص المنفى لا يتقدم حرف النفى . على أن حافظا لو شاء أن يتمحل له أنصار الرَّكة وجه صحة لوجدوا ابن كَيْسان يجيز ذلك . ولكن ليتمهلْ حافظ فإنه إن نجا من كون تعبيره خطأ لا ينجو من التجائه إلى ضعف التأليف فى نظر البلاغى .

وإنى ألاحظ أن حافظا أخذ منذ سنين يعتذر فى آخر كل قصيدة عن

---

(١) عيب على أبى تمام قوله

لا تسقنى ماء الملام فإننى صبٌّ قد استعذبت ماء بكائى

التقصير بدعوى الشيب والضعف وما عهدنا الشعراء يزدادون على الكبر إلا رونق لفظ وصفاء ديباجة وحكمة معنى . وما كان الشعر يوما صراعا أو نطاحا حتى يُعتذر فيه بمثل هذا . فلم يبق معتذراً بالشيب إلا حافظ وهذا الذى يقول

وماذا تبتغى الشعراء منّى وقد جاوزتُ حدَّ الأربعينِ

بقيت مسألة خارجة عن الشعر ومستلزماته ولكنها متعلقة بالذوق العام . كيف أباح حافظ لنفسه أن يُكنّى عن الشيخين فى أول القصيدة ثم يفرد أحدهما فى آخرها بذكر اسمه فيقول

يعقوبُ إنك قد كبرتَ ولم تزل فى العلم لازداد غيرَ تصابى

وفى الختام أرجو ألا يعدّنى حافظ خارجا على مودته فإنى ما قصدت الإساءة إليه وأنا أبتهل إلى الله الذى وفّقنى إلى رضائه قديما أن يديمنى له كما كنت والسلام

٢٩

شـــــوقى

أليس عجيبا أن تكون كلمة واحدة عنوانا لمقال ، وقد اعتاد الناس أن يستشفوا من العنوان موضوع الحديث . فهل عهدنا أنّ كلمة واحدة تستقل بالإفهام . وتؤدى مالا يؤديه كلام ؟ . نعم عهدنا ذلك فى الكلمات العالمية التى لا يستساغ فيها الجهل بل لا يستطاع . فالشمس والقمر وعُطَارد من عالم السماء ؛ والطود والبحر ، والسهل والوعر ، من اليبَس والماء ؛ والبحترى ، والمتنبى والرضىّ وشوقى من الشعراء . . . كل تلك كلمات تستغنى أن تعرّف ، وتجلّ أن توصف

لقد كان من عجيب الاتفاق أن اللغة العربية فى مظهريها الشعر والنثر تنزلت من علياء البلاغة إلى حضيض الركة والفهاهة انحداراً مع الزمن ومسايرة للتاريخ . فشاعر القرن الرابع أجزل من أخيه فى الخامس . وهذا أقرب إلى الإبانة من ناظم القرن السادس . وهكذا حتى صرنا نحكم على الأديب بتاريخ وفاته أو ولادته ، فى مقدار إجادته ، فنقول هذا من فحول القرن الثالث أو الرابع . وذاك من شعاريرِ[1] القرن الثامن التاسع . ولقد تقرر ذلك أصلا فى تاريخ الأدب لا نجد له شذوذا ولا نصطدم فيه بما يعطّل القياس أو يناقض القاعدة .

ولكنّ عصرا جديدا قد تهيأ لعظمة شوقى الشعرية كما تهيأ العصور وتتكون المقدمات وتتجمع الأسباب لفاتح يغير وجه التاريخ أو مصلح

(١) جمع شعرور . وقالوا الشعر ثلاث مراتب شاعر ، ثم شويعر ، ثم شعرور

ينشىء الاجتماع نشأة جديدة . ذلك هو العصر الذى بدأه المصلح الأكبر محمد على باشا بإيجاد المطبعة ونشر الكتب النافعة . ثم أعقبه حفيده إسمعيل باشا الذى استبطأ فى تمصير البلاد دورة الفلك وهمة الأيام فكانت همته فى ذلك أسرع مضاء ، وأكثر إرضاء .

نشأ شوقى فى بيئة ذاع فيها العلم وكثرت المطبوعات فنمَتْ عبقريّته ، ونَضِجت شاعريته . ورأيناه قد طوى مرحلة عشرة قرون وقفز إلى القرن الثالث والرابع يعارض البحترى ، ويساجل المتنبى ويتزيد على أبى تمام

والحق أن من الظلم لشوقى أن ندّعى أنه ثمرة هـذا العصر أو نتيجة تلك المقدمات . فإن المعروف أن العبقرية لا يكوّنها جيلها ، ولا تستمد وجودها من عصرها . بل هى مخلوق ينشئه الله نشأة وحده . فيكون فى عصر الظلام نوراً يكشف الغياهب . وفى عصور التمام شمسا تضائل البدور ، وتكون نورا على نور .

ودليلنا على ذلك مما نحن بسببه هـذا الإمام الجليل والعالم الطليق الفكر « ابن خلدون » فقد نشأ بالقيروان وما هى فى أيامه إلا جهل وأُميّة ، وحرمان من المدنية . بل استئناس إلى الوحشية : فكان غريبا أن يكون من بين أهلها هذا الباحث الناقد والمؤرخ الذى غيّر وجه التاريخ .

* * *

عَيْبى على المتقدمين من الأدباء أنهم أقفلوا باب الأدب كما أقفل الفقهاء باب الاجتهاد . وإن صح للفقهاء ذلك لأن وسائل الاجتهاد قد انقطعت بانقطاع رواية الحديث والتلقى عن الصحابة والتابعين مثلا فما كان

يصح أن يحرّم الأدباء على العقل البشرىّ أن يتغزل كغزل جرير أو يصف الخمر كصفة الأخطل أو يفخر كفخر الفرزدق . ذلك لأن الإجادة فى كل هذا سببها قوة الخيال والملكة اللغوية . وما بمستحيل على عقل بشرىّ مهما أتى متأخرا أن يفوق فيهما المتقدمين ما دامت قوة الخيال مستمدة من الفكر وهو لا تقف حركته ولا يزداد على كثرة المشاهدات والتثقيف بالعلم إلا اتساعاً ، وما دامت قوة الملكة اللغوية مكسوبة بتلاوة القرآن وحفظ كلام المتقدمين. فإذا أضفتَ إلى ذلك العبقريةَ المواتية والذكاء المساعد فقد تمت الأسباب وصح لك أن تساوق الأموى ، وتُرْبى على العباسى . لا بل أن تظهر فى المعنى والخيال عجز الجاهلى .

رحم الله أياماً كان أستاذنا الشيخ علام سلامة يملى علينا . . . . وأغزل شعر قول جرير

إنّ العيونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللبِّ حتى لا حِرَاكَ به ... وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ الله إنسانَا

وأمدح بيت قوله

أَلَسْتُمْ خيرَ من رَكِبَ المطايا ... وأَنْدَى العالمين بُطونَ رَاح

وأحكم بيت قوله

إنى لأرجو منك خيراً عاجلا ... والنفس مُولَعَةٌ بحب العاجل

وتلك أبيات إذا قسناها بما يعرف كل أديب من نظائرها فى كلام شوقى ظهر فضلُ الحضارة على البداوة ، وصقلُ العلم على خشونة الأمية وجفاء المنظر . .

يستدلّ العلماء على إحسان الشعراء العباسيين واتّساع المعانى أمامهم وظهور الحكمة على ألسنتهم بحضارة عصرهم وجمال مناظرهم وشيوع العلم فى أيامهم وترجمة حكمة اليونان إلى لسانهم . ويعدّون من المستحيل أن تصل البلاغة وجودة السبك وحدّها إلى دقة الوصف وسمو الخيال ورقّة الغزل ، لأن هذه أمور تتصل بالمعنى وتنتج عن الفكر ، فاستحال فى نظرهم أن يبلغ الجاهلى شأو العباسىّ فى خياله ورقّته وحكمته

وإذا كان الفضل للعلم والأثر للمشاهدة فلم لا يكون الفيلسوف من فلاسفة القرن العشرين المغمور بنعيم مدنيته ، السابح فى بحر خياله بما يرى وما يقرأ للملوك القصص ، خيراً من أهل العصر العباسىّ ، فى حين أن حضارتهم إذا نسبت إلى حضارتنا بداوة ؛ وعلمهم بالقياس إلى علمنا طُفَاوة [1] ؟ ولِمَ لا يكون شوقى أشعر من كثير منهم وهو الذكىّ الفؤاد . الخِصْب الملكة ، الرقيق الطبع ، الواسع النعمة ، الناشىء فى قصور الملوك صبيًّا ، وحامل « الليسانس » فتيًّا ؟

* * *

لعمرك ما الشعر خمر يصفّيها القِدَم ، ولا طنافسُ يُغليها طول عهدها بالقَدَم ، ولا عاديّاتٌ يكون ثمنها على مقدار البِلى والعَدَم . ولكنه لفظ ومعنى إذا هما اجتمعا فى نفس ، وصدرا عن صادق حس . استحق صاحبهما أن يتقدم وإن تأخر به الزمن ، وفاته البكاء على الدمن

(١) الطفاوة ما علا فوق الماء لخفته

من ذا يحدّثني عن شيء امتاز به الأوائل ثم لم يكن لشوقي منه أجزل نصيب . آلبداهة والارتجال ؟ وله فيهما فضل عرفناه في وفائه لأصدقائه من كبار المصريين خدّام الوطن والعلم وفخر البلاد فيما تولّوا من جليل المناصب حين كانت تعاجل المنيّة أحدهم فتسير فينا قصيدة شوقي قبل جنازة الفقيد وتكون مَوْكِباً من القول ، أحفل من موكب المشيّعين . وسِجِلاً للفضل يقصر عنه اجتهاد المؤبّنين

سلوا يوم مصطفى كامل وعمر لطفي وعلي أبي الفتوح وغيرهم ممن كنا نقرأ خبر وفاتهم في قصيدة شوقي قبل قراءته في « الأخبار المحلية » . كذلك نسائل عن بداهته وارتجاله جلساءه في شُرفة « الكونتنتال » حين يتسامرون ويلهُون ويمزحون وجلَبة الشارع من حولهم وجَعْجعة العجلات والسيارات عالية على أصواتهم ، وهو معهم في كل شعب يسلكون ، وفي كل واد يهيمون ولكنه بين الفترة والفترة يُقبل بقلمه على ورقته . فيقيّد من أوابد الشعر وعويص المعاني ما لا يتفق للمروّي الذي يَفْنَى في قلمه وقرطاسه ، ويكاد يحترق من قدح الفكر احتراق نبراسه . . . فأين منه من لا يكفيه سكون حديقة الأزبكية حتى يطلب خفوت الجَرْس . وانعدام الحس في قُنة « الجبلاية » فلا يغنيه ذلك شيئاً ولا يخفف عنه عبئاً . ولكل بيت من أبياته جولة يَذْرَعُ فيها الحديقة من جنب إلى جنب ، ومن شرق إلى غرب . ويترامى على الحشيش ، لعل النفْس منه تَجيش . فإذا اتفق له المعنى الضئيل في اللفظ الكليل حمد المغبّة ، وشكر ربه . وإن عثرتَ له بالمعنى السائغ ،

فى لفظ غير زائغ . فاعلم أنه بذل فيه جَدْع الأنف ولطم الصدغ ونتف الشارب ، والفتل فى الذِّرْوَةِ والغارب . هـذا الذى ستره الله يوم رثاء الأستاذ الإمام لأن مرضه كان مرضاً لارجاء معه وقد نفس الله على الشاعر بطول المدة حتى استطاع أن يخرجها قصيدة مشئومة الطالع نَعَب فيها على دار الإمام نعيب الغراب ، يتبعه الخراب فلما تمت أبياتها جعل فى نفسه يتعجّل القدر أن يذهب بالذّماء ، حتى يتقدم للإنشاد جميعَ الشعراء . وهكذا تمت له الأمنيَّة الخبيثة والوفاء المنكود

وما ذا للقدماء من فضل لم تجتمع له أسبابه بعد البديهة والارتجال ؟ أجودة المعنى ورقّ الخيال ؟ ؟ ونحن لم نر من النقاد الأبرياء وغير الأبرياء من أخذ شوقى بسرقة ولا ادعى عليه إسفافا . فكل معانيه أبكار ، يزينها مع الخفَر كريم النِّجار [1] . فهى إما منتسبة إلى اقتصاد أجاد دراسته . أو قانون أطال ممارسته ، أو تاريخ استصفى عِبرته . أو دين ، تم له فيه اليقين

أما خياله فإن كان غزلا فما أعفّ وأكرم . وإن كان قَصَصاً فما أدقّ وأحكم .

سائلنى عن السابقين فيم أجادوا ؟ فأذكرَ لحبيب الرثاء ، وللمتنبى وصف الغارة الشعواء ، ولابن الرومى الهجاء ، وللرَّضِىّ التمدح بالشرف والعلاء . وللوليد عَبَثَه ، ولأبى نُوَاس خمرياته ورقّته [2] ، أما شوقى فيملكنى البُهْر ، ويأخذنى السِّحْر . وما أدرى أى نواحيه أشعر . وأى أضوائه أبهر . فهو الذى يرثى الشموس فتعود إلى الدوران ، ويمدح الملوك فيعقد على جباهها أبهى من

(١) الخفر الحياء . النجار الأصل (٢) الرقث الفحش

التيجان . ويصف من النفوس الهواجس ، ويتغلغل فيها إلى حيث الأمانى والوساوس . ويسرُد لك التاريخ فكأنك ما تلقنته من غيره ، ولا قرأته إلا فى شعره . لأنك لأول مرة فى تاريخ هذا العلم تسمعه على لسان معتبر به مستبشر بخيره ، مبتئس بضيره . ومن ذا يستطيع ذلك إلا شاعر له روح شوقى تجول فى العوالم وتتقمّص ما تشاء من أشكال

لعلك لاتجد فى الشعراء المتقدمين من يستطيع أن يمثل لك عصره أو يكون (كما يقولون) مرآة جيله لأن كل واحد منهم تناول ناحية من القول خف عليه تناولها ، إذ كان بسبب منها ، فالزاهد لايجيد إلا وصف الزهد ، والعاشق لاترى عيناه غير الجمال ، ولا يبكى إلا للهجر ولا يسر إلا بالوصال . فأما الشاعر الذى لم تحدث حادثة إلا حرّكت نفسه ، وملكت حسه ، فذلك هو شوقى : يبكى للمنكوبين ، ويغتمّ للشاكين ، ويُطْرِى العلماء ، ويخلّد العظماء ، ويثير العزيمة ، ويدعو إلى كل كريمة ، ويسجّل للأبطال النصر ، ممزوجاً بالإعجاب مجزيًا بالشكر . ويشفى النفوس المريضة من أدوائها . ويريح المتعبة من عنائها ، ويرد اليائسة إلى رجائها .

أذكر لى حادثة لم يلبّ فيها شوقى نداء الضمير ولم يُجب داعى الإنسانية غير مدفوع فى ظهره ولا مسوق بحبل التأميل ، واذكر بجانبه هذا الشاعر الذى لايبكى إلا بالأجر كالنادبة تعطيك من دموعها ، على قدر ما تشبع من جوعها . هذا الذى لم يتحدث إلى الناس عن جماعة رعاية الأطفال ، إلا بعد أن عُدّت له الخمسون عدّا . وتسلمها نقدا

ولست أحيلك إلا على الجزء الأول من الشوقيات حتى ترى أنه سِجِلُّ حوادث ، وتاريخ عظماء ، وقَيْد حكمة

ولقد نظم شعر شوقي لو آثرنا بيتاً له برواية ، لأن ذلك يشعر بفضل لبعض قوله على بعض ، أو أن الجميل فيه محسوب معدود وليس شيء من ذلك بجائز في رأينا . فالرأي أن تتناول السبيكة كلها فتمتع بجملتها كلتا عينيك ، وتستمسك منها بجُمع يديك .

٣٠

حول الشوقيات

صديق الأديب الفاضل صاحب « عكاظ »

سألتنى عن رأيي فى شوقى والشوقيات . وأنا أعلم من حرصك على الأدب وخدمتك له فى صحيفتك الذائعة ، ومن طول ما شِدْت بذكر شوقى، ونشرت من شعر شوقى ، وحاربت من حساد شوقى — أعلم من كل هذا أنك فى غنى بيقينك فى الرجل عما يُدْلَى به إليك من آراء . ولكنى أعلم بجانب ذلك أن فيك ميلاً للحرية فى الرأى والإباحة لشريف النقد هو الذى جعلك تبذل صحيفتك لكل من له رأى فى شوقى . لاتبالى بعد أشايعك وتابعك ، أم خالفك ونازعك . فأقبل قبل رأيي فى شوقى شكراً جزيلا على هذه الخدمة الصادقة للأدب والإخلاص الحق للتاريخ

أما شوقى فإنى وإن كنت قد أدّيت الواجب علىّ تلقاء شعره وعبقريته فى السياسة الأسبوعية لا أرى مانعاً من إعادة الإطراء والمديح ، وتكرار التسبيح . ما دام جمال شعره متكرراً فى كل صفحة ، متجلياً فى كل لمحة

شوقى شاعر إذا مدّ الله فى عمره كما مدّ فى عمر زهير وحسان ، اجتمع له من الشعر مالم يتفق لعشرة شعراء من المكثرين أمثال ابن الرومى . فإذا اجتمع إلى هذه الكثرة أنه لاغموض يعدّ عليه ، ولا سقوط يؤخذ به . كان شوقى المثل الأعلى الذى ظل أمنيّة الآداب فما تحققت إلا فى زماننا، ولا

رنّت موسيقاها إلا فى آذاننا ، ولا اكتحلت بمرآها غير عيوننا

لا أنكر أن لغنى شوقى أثراً فى سموّ نفسه ، وأن لسموّ نفسه أثراً فى جلال شعره ، وأن لجلال شعره أثراً فى سعادتنا الأدبية بما يطالعنا به كل يوم من تهذيب لنفوسنا ، وتخليد لمجدنا ، وترفيه لآلامنا ، وإنعاش لآمالنا.. وكما يجمع الله المجد فى ماجد ، يجمع مزايا الشعراء فى واحد ، فشوقى هو ذلك الجزْل ، السهل الدقيق ، الرقيق . الجذلان ، الولْهان ، الجادّ ، الهازل ، الرحيم ، القاسى

جناية جناها شوقى على شعراء العصر ، هى جناية الشمس على الكواكب والبدر . وفضيلة أراد الله أن تنشر ، فأجرى على ألسنة الحساد كل زُورٍ من القول ومنكر

هذا وتفضل بقبول الشكر على حسن ظنك بى واعتدادك برأيى

٣١

تهذيب الكامل

صديقي الجليل صاحب تهذيب الكامل

تحية لك أيها الأخ الفاضل، وشكراً على هذه الهدية الثمينة التي ملكتْ علينا بعظمتها سبل المكافأة. وأي شيء يدخل في باب المناظرة لهديتك «تهذيب الكامل» إلا ما يملكه كل من بهظته المِنّة من كلمة شكر يرجو أن يصل بها إلى موضع الرضا من قلب المشكور.

لقد كفاني في الحكم على مجهودك العظيم، وتهذيبك المجدي، أن نظرت في فهرس الكتاب، فإذا هذه النظرة مُوحية إليّ بما بذلتَ من عناية، وألّفتَ من شارد، وقربت من بعيد، وسهّلت من صعب. وإذا بك قد برَرْتَ المبرَّد أعظم البر. وقمت عنه بما قد فاته أن يبرّز فيه تأليفه من ترتيب وتبويب، أدعى إلى الفهم، وأليق بما ينبغي من تسهيل العلم

لقد شكوتَ إليّ ما قابلك به بعض أنصار القديم [1] من انتقاد لعملك. ولقد كان أبلغ قول تجيبهم به إظهارك هذا الكتاب في هذا الطراز الجديد. وماذا يضير هؤلاء الجامدين أن يروا بَدَدا يُنظم، أو جامحا يُلجم؟ وما هي منهم والله بإخلاص للعلم، ولا أمانة عليه. ولكنها عدوى أوروبية ونزعة غربية. في الاحتفاظ بالقديم والإبقاء على البالي. وإذا أبيح لهم ذلك في

(١) طلب من الشيخ علام سلامة ابداء رأيه في هذا التهذيب فقبحه كل تقبيح

خرائب الدور وأطلال القصور . فليس بنافع للعلم أن تبقى منه خرائب مدعومة . وفائدة معدومة

لقد كان من الغرام الكاذب بكل ما يراه الغربيون ، أن استحسن مستحسن كتاب « الكامل » على ما به من تهويش واضطراب ، ليس لها شبه فى كتاب . ووالله لو أن يدا خرقاء عبثت بكتاب فنثرت أوراقه ، وبدّدت نظامه ، وقطعت كلامه . ثم قامت بجمع منتثره ، ولمّ مبعثره . غير مهتدية إلى تعقيب ، ولا حريصة على تبويب . ما كان بأدخل فى الاضطراب من كامل المبرد . ولئن كان تقطّع الصلة فى ذلك الكتاب قد عاق كثيراً من الأدباء عن استيعابه ، وتقصّى الفائدة منه ، لقد أحيا تهذيبك الرغبة فى الانتفاع بهذا السفر الجليل والأثر العظيم .

ولست أشبّهك فى عملك هذا إلا بمن اهتدى إلى نبع يتفجر منه ماء عذب ، ينساب فى كل صوب ، فتتشرّبه الرمال ، وتتخلّف عنه الأوحال . ولا ينهله الناهل إلا مختلطا بالقذى ، فيلقى منه كل أذى . ثم جاءت يد صَناع فطوَت[1] النبع ، وأقامت عليه صِهريجا وأنفذت فى الصهريج صنابير فاجتمع الماء ، وضُمن الصفاء .

وبعد فهنيئا لك هذا العمل الخالد ، والنصرة الكبرى للأدب العربى جعل الله لكتابك من الرواج بين الأدباء مايجزيك بعض الجزاء عن الهمة التى همَمتها ، والعزيمة التى وجّهتها ، والنية التى أخلصتها

واقبل التحية والشكر والتهنئة من أخيك

---

(١) طوى البئر بنى داخلها حتى لا تنهار

٣٢

ديوان مهيار

أخرجت دار الكتب المصرية فيما تخرج من كتب الجزء الأول من ديوان مهيار وهو ذلك الشاعر الدَّيلمى الجزْل القول الطويل النفس الذى يكفى فى فضله أنه تلميذ الشريف الرَّضىّ الناسجُ على منواله المسلم على يديه

وليس يَعنينا فى هذه الكلمة إلا تلك المقدمة التى قدّم بها الكتاب شاعرنا المعروف أحمد نسيم فقد جعل حضرته عنوانها (كيف صُحّح هذا الجزء) فوصف العناء الجم الذى لاقاه فى قراءة الأصل واستجلاء غامضه واستكناه عويصه حتى اضطُرّ إلى «تصحيف» كثير من الألفاظ التى ذهب إعجامها أو وضع خطأ فى غير محله. ثم ضرب لنا هذا المثل من تصرفه وتصحيفه وهو قول مهيار

وأنعُمٌ تأتيه مع الربيع جُدُدُ

وقال: (إن المقصود فى هذا البيت هو كلمة «تأتيه» وهى فضلا عن بُعدها عما يقتضيه السياق وعن عدم اتزان البيت بها فإنها توجب أن تكون القافية وهى «جدد» منصوبة فصحّفناها إلى نابتة أو إلى ثابتة ورجّحنا الأولى لالتئامها مع قوله «الربيع» وقوله «جدد» وهى لا تخفى على أهل الذوق.)

.. مهلا مهلا أيها الشاعر المعروف. إنى لم أر كلاماً هو أجمع للخطأ

والخطل من هذه الأسطر القليلة التى نقلتها من كلامك . وأرى أنه لو تعمد متعمد أن يهزل بالخطأ ما كان بالغاً هذا الحد الذى أوصلك إليه الجِدّ الذى تفخر به . . أما قولك إن كلمة تأتيه تمنع اتّزان البيت فذلك خطأ ظاهر يأباه أضعف الأذواق وأبعدها من معاناة الشعر . فكيف ساغ لشاعر أن يتورّط فى هذا الحكم . على أننا لو أردنا إقناعك من ناحية العَروض وأحكامه لاستطعنا أن نقول لك إن البيت من بحر الرجز وهو مجزوء دخل عروضه القَطْع (وهو حذف آخر الوتد المجموع مع تسكين ما قبله) فيصير مستفعلن مستفعلْ وهو وزن تأتيه . فالبيت فى نفسه لاشك موزون . وإن كان معيباً باعتباره فى القصيدة . وأما قولك إنّ كلمة تأتيه توجب أن تكون القافية منصوبة أى جددا وذلك لا يتساوق مع بقية القوافى . فهو خطأ ظاهر يدركه تلاميذ المدارس الابتدائية الذين ليس لهم بعلم النحو إلا أحدث عهد . ذلك أنّ جملة تأتيه تقع صفة لأنعم المرفوعة وكلمة جدد صفة ثانية لها فتكون مرفوعة أيضاً كما تقول : لى شعر أُعجَب به ركيك . فتكون كلمة ركيك مرفوعة على أنها صفة ثانية لشعر (راجع باب النعت فى الجزء الثانى من كتاب الدروس النحوية للمدارس الابتدائية) . وأما استعمالك كلمة التصحيف فى معنى التصحيح فهو استعمال يأباه ذوق من به مُسْكة من أدب أو له أضعف فقه للمعانى اللغوية . ألا فاعلم أيها الشاعر المجيد أنّ التصحيف قرين التحريف وكلاهما يؤدى معنى العدول عن الصواب لا الرجوع إليه ، فالتصحيف تبديل يتناول إعجام الحروف أو إهمالها . مثل جعل الجيم حاء أو الباء ياء .

والتحريف وضع حرف مكان آخر . وكلا التصحيف والتحريف من عيوب النُّساخ ومن أسباب فشوّ اللحن والعامية . ولست أدرى على أى مجاز بنيتَ استعمالك التصحيف فى معنى الإصلاح وتصحيح الخطأ

على أنّ مقدمة حضرة الشاعر المبرّز ضعيفة ركيكة ، بالغة فى الرّكة مبلغاً لا يناسب ما لحضرته من مكانة فى نفوسنا ، ومن شعر قرأناه قديماً وكان له قبول فى ذوقنا. فحضرته يستعمل كلمة « التحوير » فى معنى تبديل كلمة بأخرى مع أنه لو راجع كتب اللغة التى يكاد يختنق بكثرتها موظفو القسم الأدبى بالمكتبة لوجد أن تحوير الثوب تبييضه والحُوارىّ من الدقيق أبيضه والحَواريّون أصحاب المسيح سُمّوا بذلك لبياض سرائرهم . فليس من معانى الكلمة تبديل شىء بآخر . كذلك يقول فى معرض الكلمات التى « حوّرها » (إذ قد تختلف هذه الكلمات فيما لو وجدت نسخة أخرى . ولكنا زدناها لتعطى صورة تكميلية . . . ناقلين صفحتين كاملتين من النسخة الفوتوغرافية)

فانظر — رعاك الله — إلى مثل هذه العبارات والكلمات الأعجمية فى مقدمة ديوان لشاعر من فحول الشعراء . فكيف تطمئن نفس القارئ بعد ما رأى إلى حسن الظن بالمجهود العنيف الذى بذله حضرة المصحح « حتى كادت تزهق النفس مما تكابده من السأم والملل »

أما الأغلاط التى اتفق لى أن أعثر عليها فى هذه النظرة العَجْلَى فهى غلطات تدل على الإهمال الزائد الذى يصح معه أن ندّعى حرمان الكتاب من العناية كلها أو أكثرها . وليس أدل على الإمعان فى الخطأ من وقوعه

فى « إصلاح الخطأ » فقد ذكر فيه أن « تدمل » بضم التاء ص ٤٧ س ٩ صوابها « تدمل » بفتحها . والواقع أن الكلمة لا وجود لها بهذه الصفحة لا فى أولها ولا فى آخرها ولا فى صلبها ولا فى حاشيتها . كذلك وقع اختلاف فى البيت الذى ورد فى المقدمة وكان موضوع كلمتنا . فقد روى فى المقدمة « وأنعم » ثم روى فى قصيدته ص ٢٥٤ فى آخر أسطرها « ونعم » . ونحن نترك تتبع الغلطات لمن أخذوا على أنفسهم محاسبة دار الكتب على أغلاطها الكثيرة فيما تخرجه للناس من مطبوعات راجين أن يكون لها شأن آخر فى عهد العالم الهمام حضرة صاحب العزة أسعد بك برادة مديرها الجديد

٣٣

مراجعات فى الآداب والفنون

قرأت فى عدد من أعداد البلاغ القريبة إعلاناً لكتاب بالعنوان السابق وحين علمت أنه للأستاذ عباس العقاد هرولتُ إلى شرائه لأنى واثق أن أجد فيه تلك البحوث الطريفة والآراء الناضجة وأثر الفكر الطليق الذى نجده فى كل ما يخطه قلم الأستاذ

صاحب الكتاب صديق وقد نلتقى فى اليوم غير مرة ، فلم أتلكأ فى شراء الكتاب حتى يُهديه إلىّ لأنى أعُدّ الهدية المشكورة منه أنه لم يبخل على القراء بهذه الأفكار التى يقول عنها بحق إنها بناته وبنوه ، فيكفينا منه أنه جلا لنا هذه العرائس وزيّن لنا حياتنا الأدبية بهؤلاء البنين

لقد أتى الأستاذ بتمهيد علّل فيه تسمية كتابه (مراجعات) فشرح لنا بفلسفته الواضحة أنه لم ينقل هذه الآراء من كتاب ولا قلّد فيها باحثاً من السابقين وإنما هى خواطر لَمَعَتْ فى ذهنه فما زال يُذكيها بالمناقشة ومراجعة الفكر حتى صارت كواكب ثابتة الضوء ظاهرة البهاء . يقول الأستاذ فى مقدمة كتابه (فليس يسرنى أن تُنمى إلى أفكار كل من أقلّتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء والعلماء إذا كانت غريبة عنى بعيدة النسب من نفسى) . ثم خشى أن يعدّه الناس معجباً بنفسه تيّاهاً بآثاره . أما أنا فأرى

أن التيه والإعجاب هما منتهى التواضع ممن يعد مخترعا لكل فكرة ذكرها أو رأى أدلى به . فليبالغ المخترعون فى الإعجاب بأعمالهم وليكثروا من التجنّى والدلال علينا ولنهنأ نحن بما ظفِرنا من لذة وراحة فى الاستمتاع بآثارهم . وإذا كنا لانعدم الزهو وتصعير الخدّ من « مصنّفى » كتب المختارات فلنقبل شاكرين كل ما يكون من جبابرة العقول أصحاب الفكر الحر الذى يتجلى فى كل سطر من كتاباتهم .

إن عنوان الكتاب ليدلّك على موضوعه فهو يحوى ألوانًا شتّى من الأدب الواسع الأطرف ، فمن خيال فى جمال الزهرة ، إلى تفسير لمعنى الجمال إلى دراسة طريفة لمثل بشار ، وابن الرومى ، إلى نعى لفقيد الألحان والأغانى السيد درويش نعيا يُذْكى القلوب أسى . ويبكى العيون دما ، ويدل على الوفاء والتناهى فى عرفان الجميل ، إلى غير ذلك من كل ما نعهده جميعًا فى الأستاذ العقاد من طَرَافة فى كل ما يجرى به قلمه .

المؤلف شاعر وناثر ، وكتابه هذا من آثاره المنثورة . ولكنك لاتستطيع أن تمنع الشاعر أن يكون شاعراً فى كل ما يقول . أليس من الخيال السابح فى علياء الشاعرية قوله فى وصف الزهرة (وأول ماتدل عليه الزهرة النضارة ثم اللهفة التى ترافق فى الذهن ذكرى زوالها السريع فكأنما هى بشكلها النضير الرقيق رمز إلى فرصة العيش التى تنادى الناس باغتنامها وتذكرهم بسرعة فراقها) . وقوله فى وصف صحراء (ألماظه) الموحشة على حدود مصر الجديدة العامرة (تبدو للوهم كأنها الوحش المكبوح أحدق به نطاق

الأسر من كل صوب أو كأنها صحراء بيتيَّة صناعية أعدها الناس حول ديارهم لإيحاش أنفسهم من فَرْط الأنس بالعمار)

إذا كان الأستاذ العقاد فى غنى عن هذا القول فإن القراء لاشك منتفعون بكتاب يقدَّم لهم تقديماً صادقاً بريئاً . وكنا قد وقفنا أنفسنا على خدمة الأدب — إن قبلها منا — لبَهْرَجة [1] باطلة ، والإشادة بفاضله

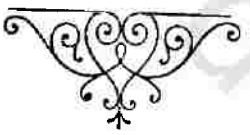

(١) البهرجة التزييف أى اظهار بطلان الشىء

٣٤

دار الكتب الملكية

كنت أختلف إلى دار الكتب وأنا طالب منذ ستَّ عشْرةَ سنة . ثم أنا اليوم أدخلها فى الضرورة القصوى والحاجة الحافزة . فهل غيَّرت الستةَ عشرَ عاماً من أحوال دار الكتب ؟ لا . بل إن كل ما حدث من التغيير والتبديل والإحداث والتجديد ، بعد طول النقد وكثرة الملاحظه ينحصر فى مواعيد الفتح والإغلاق وأيام الراحة والعُطْلة فبعد أن كانت على مثال دواوين الحكومة تفتح فى الصباح وتغلق فى الظهيرة وتعطّل يوم الجمعة صارت تستمر إلى الليل وتعطل يوم الاثنين . كذلك مما تراه من التجديد فيها تلك الحكم التى علقت على حيطانها إلى جانب (ممنوع البصق) من مثل قولهم (الوقت من ذهب) و (حديث اثنين يؤذى ثالثاً) و (إذا قلت لصاحبك اسكت فقدلَغوْت) و(رأس الحكمة مخافة الله) و (نزع « الفيش » من موضعه متلف له وموجب للتخليط فيه)

هذا كل ماحدث من التغيير واهتدت إليه آراء المصلحين من التنسيق والإبداع . اللهم إلا ما كان من أمر مكتبة التلميذ فإننا لم نرها بعد .

فأما وسائل الترغيب فى المطالعة من الإسعاف بالطَّلِبة وتيسير البحث عن الكتاب المطلوب ، فتلك مُعْضلة بقيت حيث هى من حين كانت الدار .

الفهارس وهى أولى الأشياء بالعناية فى دور الكتب تراها فى مدخل حجرة المطالعة الكبرى فى مكان مظلم يعوق ضعيفَ البصر عن متابعة البحث لولا بعضٌ من النور الصناعى هناك . ثم هى فى أدراج ضيِّقة متلاصقة لا يتيسر مع تلاصقها أن يبحث اثنان فى درجين متجاورين . ولذلك ترى الباحثين يتعاقبون على الفهارس وقد يطول من أحدهم الانتظار على غير جَدْوَى لأن سابقه ضالّ لا يجد له هادياً . . فهلاّ راعت إدارة الدار هذا الزحام الشديد على الفهارس ففرّقت بينها ثم جعلت منها أمثلة متعددة حتى لا يحتاج باحث إلى انتظار غيره . ولقد تحسن الإدارة لو علقت على الحائط فى حذاء كل فهْرس رُقعة كتبت فيها بخط كبير نوع هذا الفهرس

وإن الأمر الذى كنت أشكوه قديماً وجدت اليوم كثيرين لا يزالون يشكونه من أمر هذه الدار ، وذلك هو الغموض فى كثير من شؤونها والعقبات الجمّة فى سبيلها ، ففى أول عهدى بها كثيراً ما كنت أقصدها وأعود من غير أن أُوفّق إلى كتاب أستعيره حتى درستُ أحوالها وكشفتُ غوامضها وذاعت لى أسرارها . وقد ذكّرنى بذلك أنى كنت منذ أيام ألوم صاحباً لى لتركه تمضية بعض فراغه فيها فقال لى إن دخولها علم يحتاج إلى دراسة لم أوفّق إليها بعد . فذكرتنى هذه الكلمة بما قام فى سبيلى من عقبات تغلبت عليها قديما بقوة الشغَف الذى كنت أطلب به العلم وأستلذ به كل ما أعانى فى سبيله

فلم لا تميط الإدارة اللثام عن تلك الطلاسم حتى لا يُحجِم المحبون للعلم عن دخولها بدعوى وُعورة سبيلها ؟ هل يصعب عليها أن تختار موظفاً

واسع الصدر ، باشّ اللقاء ، نشيط الحركة ، مبجِّلا لأهل العلم ، يكون بجانب الفهارس يستهدى برأيه كل باحث . . .

كذلك ألاحظ أن عيباً فى دار الكتب لم يحاول أحد ممن تعاقبوا عليها أن يتلافاه بالإصلاح . وهو هؤلاء السعاة الذين يُحضرون الكتب للقراء . فهم « رعاك الله » يجمعون إلى سوء الأدب ومظهر البؤس ورزوح الكاهل بأعباء الحياة ، استثقالا للعمل ، وكراهة للحركة ، وعمشاً وصمماً ، وهرماً وسقَماً . فإذا أتاك أحدهم بكتاب أحدث جَلَبة بحذائه الثقيل ، واهتدائه إلى مكانك بألف دليل . ووصل إليك وهو يَلْهَث تعباً ، ويترامى لَغَبَا . ثم رماك بالكتاب ، يصحبه السباب . فأذا وجدته فرَنجياً ومرادك عربىّ ، أو إنجليزيا وطلبك فرَنسىّ . أحالك على المراقب ، ثم ولّى وهو هارب . وفى ذلك يضيع يومك فتخرج ولم تَشْفِ غُلّتك ، أو تصحح غلطتك أو تتلاف جَهلتك

ياعجبا ! يكون عمال الترام حملة شهادات وشبانا أصحاء وتجد منهم الشركة حاجتها مع مشقة عملها وكثرة مخاطرها وتحرم دار للعلم أو للحكومة أو عمل شريف كهذا من مثل هؤلاء . والحكومة — والحمد لله — لاتضنّ على سعاتها وخدمتها بما يرضى حملة الشهادات فينا . فكيف لاتفكر إدارة هذه الدار أن تستبدل بهؤلاء الوَكَلة العَجَزة القعَدة شبانا متعلمين ، أيقاظاً فيما يُكلَّفون ، خِفافاً فيما يؤدّون ، لم تَحْنِ ظهورَهم الأيام ، ولم تقطّب جباهَهم الآلامُ والأسقام